الدراسات القرآنية في نظر المستشرقين

أ.م.د. أسعد عباس كاظم المياحي/ كلية الآداب/ جامعة واسط
أ.م.د. رياض رحيم المالكي/ كلية الدراسات القرانية/ جامعة القاسم الخضراء

المقدمة

هذه دراسة تنتظم شيئاً من جهود المستشرقين في الدراسات القرآنية المتنوّعة وتتناول بالبحث الموضوعي عطاءهم الفكري، وتشير إلى أبرز أعمالهم في هذا المجال. وليس في استقراء هذا الأثر حبّ بالمستشرقين أو تعصب لهم، بقدر ما فيه من حب للقرآن الكريم وإعجاب بعظمته وقوة ذيوعه وانتشاره.

لقد ظلّ القرآن الكريم مثار دهشة الغربيين من مستعربين ومستشرقين ، بما أحدثه من تغيير شامل في المجتمع العربي والإسلامي وما أضافه إلى الحضارات الإنسانية من زخم وحياة ، وما قدّمه للثقافة من تطوّر وتجديد، فحدبوا على دراسته بمثابرة، وتتبعوا نصوصه بإمعان، فرآه البعض مادّة للأبحاث الموضوعية فدرسه بهذا المنظور، واشتد على البعض الآخر وقعه فأثار عنده الحقد الدفين، ومن هذا وذاك طغت على السطح الأكاديمي دراسات الاستشراق القرآنية، فاتسم بعضها بالموضوعية، وبدا على قسم منها تبعات الهوى حينا، وروائح الاستعمار حينا آخر، وملامح التبشير بعض الأحايين ، فخلص لنا من كل أولئك مزيج عجيب يدعو إلى الحيرة، وقد حاولنا في هذه الدراسة تصنيفه وتنقيته والوقوف فيه عند حدوده العلمية.

وهذا البحث يعرض لبعض الشبهات التي صدرت عن المستشرقين بخصوص آرائهم في القرآن الكريم ، وقد بحثنا فيه في تعريف الاستشراق والمستشرقين، بعدها تناولنا اراء المستشرقين في القرآن، و خلُص البحث بنتائج عدّة كان من أهمها أن لبعض المستشرقين موقف سيء ضد الإسلام بصورة عامة ، والقرآن الكريم بشكل خاص ، ولم يكن الهدف من الشبهات التي أثاروها – في الأعم الأغلب – طلب العلم ومعرفة القرآن ، بل كانت تحاول إضعاف قيمة القرآن الكريم ، بينما تناول بعضهم محاولاً تفسير وتحليل لا يتقصّد فيه ذلك، لكنّنا بين هذا وذاك حاولنا عرض تلك الآراء دون تعصّب، بل نترك المجال واسعاً للقاريء المنصف ليطّلع على تلك الآراء التي من خلال استعراضها له قد يحاول الرد عليها بطريقة علمية لا سيما إن كان متخصصاً عارفاً فاهمياً لخلفيات تلك الإشكالات .

تعريف الاستشراق

الاستشراق : عند النظر إلى لفظة (استشراق) نجد أنها مصوغة على وزن استفعال، ومشتقة من مادة (ش ر ق)، "قد أضيف إليها الألف والسين والتاء لتعني طلب الشيء فيصبح المعنى: طلب لغات الشرق وعلومه وأديانه. أو التعرف إلى العالم الشرقي من خلال الدراسات اللغوية والدينية والتاريخية والاجتماعية وغيرها، و لم نجد لها في القواميس العربية القديمة ذكراً أو تعريفاً، وأمام هذه النقطة نجد لزاماً وعلينا أن نعرف (الشرق) إذ جاء في لسان العرب : شرق : "شرقت الشمس تشرق شروقا وشرقاً : طلعت، واسم الموضع : المشرق ... والتشريق : الأخذ في ناحية المشرق، يقال : شتان بين مشرّق ومغرّب، وشرقوا ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق[١]،

وذكر المستشرق رودي بارت أنّ :" الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة. ... وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي."[٢] ويعتمد المستشرق الإنجليزي آربري تعريف قاموس أكسفورد الذي يعرف المستشرق بأنه " من تبحّر في لغات الشرق وآدابه."[٣]، فالاستشراق : " استشرق طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم، مولدة عصرية، يقال لمن يعنى بذلك من الافرنج[٤]

فالاستشراق: نمط من السلطة الفكرية على الشرق داخل الثقافة الغربية، وينبغي أن تكون هذه السلطة إلى حد كبير موضوع أي وصفٍ للاستشراق، حتى اسم الاستشراق نفسه يوحي بأسلوب من المعرفة الخابرة "[٥]، "وهذا التعريف لا يركز على محتوى الاستشراق ونفوذه وسلطته ووظيفته، والحقيقة أن الاستشراق يجب أن ينظر إليه في شموليته كمستودع للمعرفة الشرقية، ومصدر لهذه المعرفة، يعود إليها المتخصصون وغيرهم في الغرب والشرق " [٦]

وعرفه آخرون بأنه: "ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع بينهما"[٧] ويرى البعض أن الاستشراق: مفهوم غير واضح المعالم لدى المفكرين العرب والمسلمين[٨]، وتبعاً لاختلاف نظرة المفكرين والمثقفين للاستشراق فقد اختلف في تعريفه كما سبق .

أما التعريف المختار فيتمثل بأن الاستشراق **هو** دراسات أكاديمية يقوم بها علماء غير مسلمين للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة وتاريخ نظم وثروات وإمكانات ، سواء أكانت هذه الشعوب تقطن شرق البحر الأبيض أم الجانب الجنوبي منه، وسواء أكانت لغة هذه الشعوب العربية أم غير العربية كالتركية والفارسية والأوردية وغيرها من اللغات، لأهداف متنوعة ومقاصد مختلفة[٩].

ومن الغربيين الذين تناولوا ظهور الاستشراق وتعريفه المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون Maxime Rodinson

الذي أشار إلى أن مصطلح الاستشراق ظهر في اللغة الفرنسية عام ١٧٩٩بينما ظهر في اللغة الإنجليزية عام ١٨٣٨، وأن الاستشراق إنما ظهر للحاجة إلى " إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق" ويضيف بأن الحاجة كانت ماسة لوجود متخصصين للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية[١٠] . ولو انتقلنا إلى العرب والمسلمين الذين تناولوا هذا المصطلح نجد أن إدوارد سعيد عدة تعريفات للاستشراق منها أنه : " أسلوب في التفكير مبني على تميّز متعلق بوجود المعرفة بين "الشرق"(معظم الوقت) وبين الغرب"[١١]

و قدّم أحمد عبد الحميد غراب مجموعة من التعريفات للاستشراق استناداً إلى العديد من المراجع في هذا المجال ثم اختار أن يجمع بينها في تعريف واحد وهذا التعريف هو : " هو دراسات "أكاديمية " يقوم بها غربيون كافرون – من أهل الكتاب بوجه خاص- للإسلام والمسلمين، من شتى الجوانب: عقيدة ،وشريعة ، وثقافة ، وحضارة ، وتاريخاً، ونظماً، وثروات وإمكانات .. .بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه ، وتضليلهم عنه ، وفرض التبعية للغرب عليهم ، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية ، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي."[١٢] وقد رجع أحد الباحثين المسلمين وهو السيد محمد الشاهد إلى المعاجم اللغوية الأوروبية (الألمانية والفرنسية والإنجليزية) ليبحث في كلمة شرقORIENT فوجد أنه يشار إلى منطقة الشرق المقصودة بالدراسات الشرقية بكلمة

" تتميز بطابع معنوي[١٣] وهو Morgenland[١٤]. والاستشراق بتعبير موجز : دراسة يقوم بها الغربيّون لتراث الشرق وبخاصة كل ما يتعلق بتأريخه، ولغاته، وآدابه ، وفنونه ، وعلومه ، وتقاليده وعاداته[١٥]، ولن يتأتّى له الوصول إلى نتائج سليمة ما لم يتقن لغات الشرق[١٦]

اراء المستشرقين في القرآن :

إن المتتبع لدراسات المستشرقين ليجد أن لآرائهم تعدداً وتغايراً منذ القرن الثامن عشر، يختلف بإختلاف الباحثين ، فمن أمثلة ذلك ما زعمه كل من[١٧] «جوستاف فايل» ، و»كازا نوفا» و«جولدزيهر» و«جورج سيل»، و«ريتشارد بل»

و«ج. إيراك».. فعلى سبيل المثال نجد أن جوستاف فايل في كتابه «مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن» يقول : « إن القرآن الذي نقلوه ليس بعينه القرآن الذي تلاه محمد على المسلمين أثناء حياته، بل إنه حرف وبدل بعد وفاته وخاصة في الصدر الأول للإسلام، وقال ثانيهم في كتابه «محمد ونهاية العالم»: إني أؤكد أن مذهب محمد الحقيقي إن لم يكن قد زيف، فهو -على الأقل- ستر بأكبر العنايات، وأن الأسباب البسيطة التي سأشرحها فيما بعد هي التي حملت أبا بحكر أولا ثم عثمان من بعده على أن يمدا أيديهما إلى «النص المقدس» بالتغيير وهذا التغيير قد حدث بمهارة بلغت حدا جعل الحصول على القرآن الأصلي يشبه أن يكون متسحيلا [١٨]

أما «جولدزيهر» وهو يعد من أشهر علماء الغرب في الاستشراق له كتاب بعنوان «العقيدة والشريعة في الإسلام» وقد ترجمه د.محمد يوسف موسى وآخرون، يقوم في جملته على أربعة مزاعم خطيرة هي: «أن القرآن من صنع محمد، وأن الحديث النبوي من صناعة الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية، وأن التشريع الإسلامي مستمد من القانون الروماني، وأن الجيوش الإسلامية التي حملت الحق والخير والعدالة إلى الدنيا لم يكن باعثها الإيمان، وإنما الذي أخرجها من الجزيرة العربية القحط والجوع»[١٩]

وقال «جورج سيل» صاحب كتاب «ترجمة معاني القرآن» الذي أصدره عام ١٧٣٦م وقال في مقدمته «إن محمدًا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل وإن كان من المرجح مع ذلك أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة. وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك»[٢٠]

وإذا كان جورج سيل قد بت في مصدر القرآن على النحو السابق فجعل الرسول مؤلفه دون مواربة، فإن الأستاذ «ريتشارد بل» مؤلف كتاب «مقدمة القرآن» قد سد النقص الذي تركه «سيل» في تلك الأكذوبة، فاستظهر أن الرسول «محمد» قد استمد من الكتاب المقدس كثيرا مما جاء في القرآن وبخاصة القصص القرآني ادعاؤهم بنحل القرآن من الكتب السماوية[٢١]

بينما ذهب المستشرق «لوت» إلى أن النبي " صلى الله عليه وسلم" مدين بفكرة فواتح السور من مثل: حم، طسم، وألم.. الخ.. لتأثير أجنبي، و«يرجح أنه تأثير يهودي، ظنًا منه أن السور التي بدئت بهذه الفواتح مدنية خضع فيها النبي " ﷺ" لتأثير اليهود»[٢٢]

أما غوستاف لوبون فيرى في كتابه «حضارة العرب» أن القرآن الكريم من شواهد عبقرية محمد " ﷺ" وهو من إنشائه ولكنه يجعله دون كتب الهندوس قيمة فيقول: ليس في عامية القرآن ولاهوتيته التي هي من صفات الأديان السماوية ما يقاس بنظريات الهندوس، ثم ينكر شمولية القرآن الكريم، ويرى أنه مؤقت بعصره، لا يحقق حاجات الفرد في عصور لاحقة، بل يجعله سبب تخلف المسلمين![٢٣]

بينما يستغل الأستاذ بول نصا من النصوص القرآنية في إدانة اليهود بأنهم : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَراعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً)[٢٤] ليبني حكما طائشا على إدراك خاطئ فيعتبر التحريف تغييرا مباشرا لصيغة مكتوبة في القرآن[٢٥].

وقد اشتمل تعصبه الفاضح على ألفاظ تجريحية ألصقت بالرسول الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم دون مسوغ لها على الإطلاق، ويثير مسألة الناسخ والمنسوخ وسيلة يتذرع بها خصوم النبي للقول بالتحريف،ويحاول الدس والافتراء لتشتيت شمل المسلمين من خلال هذا المنظور الهزيل الذي لا يوافقه عليه حتى المستشرقون[٢٦] .

وتكاد تتفق كلمة المستشرقين وعلماء الغرب المنصفين ممن لهم دراسات في هذا المجال ـ وهم لا يؤمنون بكون القرآن منزلا من الله ـ على صحة نقل القرآن وانتهائه بنصه إلى النبي محمد صلى‌الله‌عليه وآله وسلم ، وهناك بضع شهادات لكبار العلماء من المستشرقين تؤكد أن القرآن هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصه محفوظا من التحريف ، من بين كتب الديانات جميعا ، وأنه لم يتطرق شك إلى أصالته ، وأن كل حرف نقرأ اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أي تغيير من يوم نزوله[٢٧].

وقد أورد الأستاذ أبو الحسن الندوي جملة من نصوص المستشرقين في الموضوع[٢٨]. وقد زيف الإمام الخوئي دعاوى القول بالتحريف ، ودحضها جميعا ببراهين وأدلة رصينة لم يسبق إليها من ذي قبل[٢٩]. بينما نجد الأستاذ نولدكه في تأريخ القرآن يخالف جملة وتفصيلا فكتابه هذا بالإضافة إلى ما سبق بيانه في مبحث تأريخ القرآن ـ يفهم فيه من القرآن ما لا يفهمه السذج أو المتعصبون ، يفهم منه أنه كتاب سماوي وتراثي بوقت واحد ويجب أن يبحث من وجوه شتى ، وقد اعتبره بحق أبو عبد الله الزنجاني من أهم ما ألفه الافرنج في تأريخ القرآن من نواح شتى بما يشهد بتضلّعه واطلاعه الواسع ، كما بحث عن حقيقة الوحي والنبوة ، وشخصية النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ونزول القرآن ، وتأريخ السور مكيّها ومدنيّها.

وقد سلك في كشف تأريخ السور مسلكا قويما يهدي إلى الحق أحيانا ، فإنه جعل الحروب والغزوات الحادثة في زمن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وعلم تأريخها كحرب (بدر) و (الخندق) و (صلح الحديبية) وأشباهها من المدارك لفهم تأريخ ما نزل من القرآن فيها ، وجعل أيضا اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابي دليلا آخر لتأريخ آياته.

فيقول في الخطابات الواردة في الآيات بلفظ (يا أيّها الناس) والشدة في الإنذار ، نزلت في أول النبوة ، وقلة عدد المسلمين ، والخطابات بلفظ : (يا أيّها الذين آمنوا) ، وآيات الرحمة نزلت بعد ازدياد عدد المسلمين والمؤمنين . وهو يرتاب في بحثه التحليلي في الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين في تأريخ القرآن. وفي عين الحال يأخذ من مجموعها ما يضيءفكره ، ويرشده إلى تأريخ السور والآيات ونظمها أحيانا[٣٠] .

ومن أروع ما حققه الأستاذ نولدكه في كتابه (تأريخ القرآن) وأشار إليه استقصاؤه لتأريخ نزول القرآن معتمدا على ما جاء بكتاب : أبي القاسم عمر ابن محمد بن عبد الكافي في الموضوع (من علماء القرن الخامس الهجري) ، وذكر أن كتاب أبي القاسم موجود في مكتبة Lygd God) (Warn ٦٧٤ ثم تقسيمه ذلك إلى ما نزل من القرآن على النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله وسلم في مكة وإلى ما نزل عليه في المدينة.

ونولدكه وان نقل أغلب ذلك عن كتاب أبي القاسم إلاّ أنه حققه ونشره ودلنا بعد ذلك على نسخة الكتاب[٣١]. وقد أحسن أبو عبد الله الزنجاني صنعا بنشر ما اعتمده نولدكه ، وما استخرجه هو بالاستعانة بكتابي « نظم الدرر وتناسق الآيات والسور » لإبراهيم بن عمر البقاعي ، و « الفهرست » لابن النديم ، وقد بوب ذلك في فهارس منسقة دقيقة استغرقت أكثر من عشر صفحات في كتابه[٣٢] .

وكان مما اجتهد فيه نولدكه ترتيبه للقسم المكي من القرآن وحصره بخمس وثمانين سورة وترتيبه للقسم المدني منه وحصره للمدني بثماني وعشرين سورة [٣٣].

والغريب أن يكون ما توصل إليه نولدكه بعد البحث والتمحيص والمقارنة قد جاء على لسان ابن عباس بما حدث به ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس قال : نزلت بمكة خمس وثمانون سورة ونزلت بالمدينة ثمان وعشرون سورة[٣٤] .

ولم يذكر نولدكه الفاتحة لا في المكيّ ولا في المدنيّ ، ولعله متوقف فيها باعتبارها في نظرة مكيّة ، مدنيّة ، فتمت بذلك سور القرآن أربع عشرة ومائة سورة.

ومن المستشرقين من قالوا: ((أنّ محمداً هو الذي صنع القرآن))[٣٥]، و ((القرآن من عند محمد))[٣٦] . ونجد من المستشرقين من تعصّب في رأيه يقول المستشرق الفرنسي (كارادي فو) : ((ظلّ محمد زمناً طويلاً معروفاً في الغرب معرفةً سيئةً، فلا تكاد توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه))[٣٧] ، وتحدّث كولي عن الحروب الصليبية فقال: ((... وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الإنجيل على القرآن، وعلى ما تضمنه من قوانين الأخلاق الساذجة))[٣٨]، ورأى بعض المستشرقين أنّ النبي متأثر في فواتح السور باليهود، وكان القرآن من تأليفه[٣٩] ، ونفى المستشرق نولدكة في كتابه (تاريخ القرآن) أن تكون فواتح السور من القرآن، مدّعياً أنّها رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأولين، فحرف الميم كان رمزاً لصحف معتبرة، والهاء لصحف أبي هريرة، والصاد لصحف سعد بن أبي وقاص،والنون لصحف عثمان، فهي عنده إشارات لملكية الصحف، وقد تركت في مواضعها سهواً، ثم ألحقها طول الزمن بالقرآن، فصارت قرآناً))[٤٠] ، كما بدأ التشكيك في القرآن، وأنّ محمداً استمدّه من كتب الأمم السابقة، يقول لهوزن: ((يبرز في القرآن شأن القدرة الإلهية تارة، وشأن العدل تارة أخرى، وذلك بحسب ما كان يحسّ به النبي (ص) بما في ذلك من تناقض لأنّه لم يكن فيلسوفاً ولا واضعاً لمذهب نظري في العقائد، ويقول دي بوير: قبل الرعيل الأول من المؤمنين ما في القرآن من تناقض، وهو الذي نعلله نحن بتقلّب الظروف التي عاشها النبي وباختلاف أحواله النفسية[٤١].

وحذا المستشرقون المتحاملون على الإسلام في موقفهم من القرآن حذو المشركي مكة، وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أنّ القرآن ليس وحياً من عند الله وإنّما من تأليف محمد(ص) وردّدوا الاعتراضات التي قالها الوثنيون قديماً[٤٢]، ويقول جورج سيل في مقدمة ترجمته الانكليزية لمعاني القرآن التي صدرت عام ١٧٣٦م ما يأتي: ((أما أنّ محمداً كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل ، وإن كان من المرجح ــ مع ذلك ـ أنّ المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة...))[٤٣]، وقد صادقت المقدمة التمهيدية للترجمة التي جزم فيها بتأليف محمد للقرآن نجاحاً عظيماً في أوروبا ، الأمر الذي أدّى بمستشرق آخر هو (كاسيمركي) أن يجعل في مقدمة سيل مقدمة لترجمته الفرنسية لمعاني القرآن التي صدرت عام ١٨٤١م، وقد استطاعت أن تثبت وجودها زمناً طويلاً جداً[٤٤].

وفي الوقت ذاته كان القرآن الكريم كتاب مقلق للغربيين، ومحيّر لهم، ومبلبل لأفكارهم، يقول بلاشير: ((قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتاباً بلبل بقراءته أدبنا الفكري أكثر ممّا فعله القرآن))[٤٥]، ومن هنا نعرف سبب هلع الغرب وفزعه الذي لا حدّ له عندما يشعر بوجود تيار إسلامي في أيّ مكان في العالم الإسلامي ، وهذا يعني انطلاق المارد الإسلامي من سجنه ليثبت وجوده ويشارك بفاعلية في تقرير مصير العالم ، وهذا الأمر الذي يرى فيه الغرب تهديداً لمصالحه في الشرق الإسلامي[٤٦].

وكان للمستشرقين إشكالات كثيرة منها:

ــ ما قاله كازانوفا : فهناك آيتان يشك في صحة نسبتهما إلى الوحي النبوي، والراجح أن يكون أبو بكر هو الذي أضافهما على اثر موت النبي (ص) : فأقرّه المسلمون على ذلك ، وهما قول القرآن: ((وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ...))[٤٧]، وقوله : ((إنّك ميّت وإنّهم ميتون، ثم إنّكم يوم القيامة تختصمون))[٤٨]، أفلا يظنّ البعض بصحة ذلك ، وأنّها من صنع أبي بكر؟!. ولا يمكن أن نتطلب من مستشرق أن يرى القرآن بعين المسلمين ، فلا نحمله أكثر من مهمته الأكاديمية ، فقد يتهاون بعض المستشرقين بأقدس جانب من القرآن ولا يراه تهاونا ، وقد يقصر في عرض وجهة نظر دقيقة ولا يجده تقصيرا ، وقد يطنب في نواح لا تستدعي اهتماما جديا في نظرنا ، ومع ذلك رأينا البعض الآخر يعامل القرآن معاملة تفوق معاملته

للتوراة والإنجيل وان كان يهوديا أو مسيحيا ، معتبرا القرآن من المقدسات الإلهية الكبرى ، كما هي الحال عند المتورعين من المسلمين، وفي هذا الضوء يجب أن يكون الباحث منصفا في التقويم والجرح والتعديل ، ولا يتطلب من الحركة الاستشراقية أكثر مما تدعيه هي لنفسها ، أو أمرن مما تسمح به لها الطقوس الدينية المتداولة ، وهذا لا يعني أن نغض طرفا عن الأخطاء الطائلة إن وجدت ، أو النزاعات المتطرفة ان كشفت ، ولا نتستر على النيات المشبوهة الأحكام ، ولا نقف موقف المتسامح من القرار اللا موضوعي ، ولكن علينا أن لا نتمحّل فنتصور المستشرقين أتقياء بررة ، فنحملهم أكثر من طاقاتهم المتعارفة ، ولا نتغطرس فنجعلهم مثالا للأنانية ، فهم بشر ، والبشر فيه الصالح والطالح ، وهم ملتزمون بعقائد معينة ، قد يصاحب التزامهم هوى ، وقد تفرض النفوس الموضوعية، فإنّ الفهم الاستشراقي للقرآن قد يختلف أحيانا عن فهمنا له ، لأسباب متأصلة ، تمليها ظروف نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، وقد تمليها نزعات عدائية حينا ، وتبشيرية حينا آخر ، وهنا يكمن الخطر المتفاقم إذ قد يشذّ المستشرق في هذه الأحوال عن الصواب ، وهنا يعامل النص العلمي بمنظور اليقظة والحيطة والحذر إذ قد يتجنى على العلم والحق، وقد يختلف أحيانا عن فهمنا له ، لهموم علمية وأكاديمية تعتبر أجدى نفعا عندهم وأكثر تحصيلا مما هي عندنا، وقد يختلف أحيانا عن فهمنا له لأنهم لا ينظرون إلى القرآن نظرة تقديس نظرتهم إلى التوراة والإنجيل ، فيكون التقصير مفروضا من داخل النفس الاستشراقية، وقد يختلف أحيانا عن فهمنا له لأنهم يرون أن القرآن كتاب ثقافي حضاري يدرس من هذا الجانب ، ولا يعالج منه ما له صلة بالوحي أو الغيب ، وإذا عولج هذا الجانب فقد يعالج معالجة من لا إيمان له به ، ولا ركون إليه ، وهي قضية أخرى.

أما بالنسبة لدحض هذه المفتريات على القرآن الكريم، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو أمر سهل وميسور، فسنعتمد على أقوال جانب من المستشرقين الموضوعيين الذين فندوا تلك الأقوال الباطلة والمزاعم الخاطئة حول القرآن الكريم، ومن ذلك ما قاله الكونت هنري دي كاستري: «لو قال قائل إن القرآن ليس كلام الله بل كلام محمد فلابد لنا على الحالين من الاعتراف بأن تلك الآيات البينات لا تصدر عن مبتدع أبدا، خلافا لرأي من ذهب إلى تكذيب نبوته.. ولعلّ رأيهم جاء من ضيق «فهمهم» للغة[٤٩]

ويتساءل «الكونت» مستنكرًا: وكيف يعقل أن النبي ألف هذا الكتاب (القرآن) باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى -كاللغة اللاتينية –ما كان يعقلها إلا القوم العالمون؟! بل ذهب إلى أبعد من ذلك فتعجب من مسيو» رينارد وزني» مما قاله في كتابه «تاريخ الإسلام» عن القرآن: «إن في القرآن أغلاطا نحوية كثيرة، وإن تلك الأغلاط جعلت فيما بعد من جملة قواعد النحو أو مستثنيات من قواعده»[٥٠]

ويعقب «دي كاستري» على ذلك بقوله: ولعمري أي مصدر اعتمد عليه ذلك المؤلف فيما ادعى، مع أننا لم نعهد كتبًا نحوية قبل الإسلام، ولو صح وجود شيء منها فلابد أنه كان عزيزا نادرًا. وقد شاهدنا أن أناسا -كان أكثرهم أميين قاموا في أمة العرب- وادعوا النبوة، وادعى النبوة منهم مسيلمة الكذاب الذي زعم أنه قرين محمد ثم أتى بسور (قصص) سخر العرب منها لسذاجتها وتدني قيمتها الأدبية[٥١] !

لقد جاهر «كلوفاريز» الكاتب الفرنسي المعاصر وعضو مجمع اللغة العربية بقوله: «إن آيات القرآن جميلة وتحسن تلاوتها، فيها نفحة ظاهرة عجيبة لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة وتدعو إلى حماية الضعيف وإلى عبادة إله واحد»[٥٢]، ولعل في ذلك أبلغ رد على الذين يدعون بأن القرآن كلام ركيك، ثقيل على النفس، مدقع في الأفكار، وخليط مهلهل مشوش... إلخ.

والشيء نفسه يقرره الأديب الكبير بارتملي شتيلر [٥٣] بقوله: «إن القرآن قد بقي أجمل مثال للغة التي أنزل بهاء ولم أر ما يشبه ذلك في جميع أدوار التاريخ الديني للعالم الإنساني، وهذا الأمر يفسر لنا التأثير العظيم الذي أحدثه هذا الكتاب على العرب ، ويقول المستشرق جيمس منشز في إحدى مقالاته: لعل القرآن هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم وهو بكل تأكيد أيسرها حفظا وأشدها أثرا في الحياة اليومية لمن يؤمن به، فهو ليس طويلًا كالعهد القديم. وهو مكتوب بأسلوب رفيع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر[٥٤] ، ولم يكن للنبي محمد في القرآن من حظ إلا أربعة أشياء هي: الوعي والحفظ، لقوله تعالى: {سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى[٥٥] ، والحكاية والتبليغ {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلا}[٥٦] .

والبيان والتفسير، لقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}٥٧ ثم أخيرا التطبيق والتنفيذ لقوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ}[٥٨]

فالقرآن الكريم معجزة خالدة لرسالة خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودراسته تنفي أن يكون شيء منه من كلام بشر، والموازنة بينه وبين الأحاديث النبوية تؤكد بوضوح أن النبي محمد " ﷺ" لا قدرة له على الإتيان بقرآن مثله، فهو كلام الله المعجز في آياته وبيانه Kوما فيه من تشريع ديني واجتماعي وسياسي وقوانين ومعاملات وشؤون أسرة وعلاقات داخلية وخارجية ونظام حروب وجهاد في سبيل الله لا يمكن أن يقوم به فرد واحد من عنده مهما كانت قوته وبلغ علمه.وكما يقول «الكونت هنري دي كاستري».. لو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب، أتى محمد بالقرآن دليلا على صدق رسالته وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار التي تعذر فك «طلاسمها»[٥٩] (أي الصعب من ألفاظه وعباراته).

الخاتمة

إنّ الإعجاز الغيبي والعلمي واللغوي أثبت حجيّة القرآن الكريم، والقرآن تحدّى البشر بذلك ((وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله...))، وعلى الرغم من ذلك نجد من يشكك بالقرآن متعنتاً ، ومنهم دون قصد، ومنهم من قدّم رأياً وقدّم بحوثاً ، ومهما كانت تلك الآراء فقد تخللها اعتراف بعضهم فيمكن ردّها ومناقشتها بطرق علمية، ومنها : الإشكال الذي استشكله بعضهم بأنّ فواتح السور نتيجة التأثر باليهود، ففواتح السور مكية وعددها سبع وعشرون، ولا تكاد توجد سورة مدنية بهذه الفواتح سوى البقرة وآل عمران، فكيف تأثر الرسول باليهود.

أما ما ادعاه كل من جورج سيل وريتشارد بل، وج إيراك وجوستاف فايل وكازانوفا.. من أن القرآن الذي نقله أصحاب محمد ليس بعينه القرآن الذي تلاه محمد على المسلمين أثناء حياته، بل إنه حرف وبدل بعد وفاته، خاصة في الصدر الأول للإسلام، فتجدر الإشارة إلى أن الذين زعموا هذا الزعم الفاسد هم من أشد المستشرقين تعصبا، أما كثرتهم فيقرون بأن القرآن الذي نقرأه ونرتله اليوم إنما هو بعينه القرآن الذي قرأه النبي محمد " ﷺ" أثناء حياته، لم يحرف ولم يبدل. وهم حريصون على أن يذكروا هذا وإن أضافوا إليه نقدًا للنظام الذي جمع القرآن به ولترتيب السور فيه، وكان على رأس هؤلاء المستشرقين السير وليم ميرو، وهو المسيحي الشديد الحرص على مسيحيته، فقد ذكر في كتابه «حياة محمد» ما ترجمته: كان الوحي المقدس أساس أركان الإسلام فكانت تلاوة ما تيسر منه جزءا جوهريا من الصلوات اليومية

وكل ما لدينا مقنع تمام الإقناع بأن الأمر كذلك– وهو أن القرآن الذي نتلوه إنما هو نص مصحف عثمان لم يتغير- فليس في الأنباء القديمة أو الجديرة بالتصديق ما يلقي على عثمان أية شبهة بأنه قصد إلى تحريف القرآن. ونستطيع أن نستنبط

مطمئنين أن مصحف عثمان كان وما يزال صورة مضبوطة لما جمعه زيد بن ثابت مع مزيد في التوفيق بين الروايات السابقة له وبين لهجة قريش، ثم استبعاد القراءات التي كانت منتشرة في أنحاء الدولة.

ولا مراء في أن ذلك النفر القليل من غلاة المستشرقين الذين نادوا بفرية تحريف القرآن وأنه كتاب من وضع الرسول محمد هم مسيحيون مغرقون في مسيحيتهم ظلوا يفترون على الإسلام ونبيه الكريم ويلتمسون المطاعن في تعاليمه السمحة بمعاونة أحبار الكنيسة وبتأييد من الاستعمار الغربي، فأتوا بآراء ونظريات مما يبرأ منها الإسلام وأدخلوا على سيرة الرسول الأعظم خرافات لا يسيغها العقل الواعي ولا يقبلها الذوق السليم.

ومن الطرائف أيضًا أن نجد من المستشرقين الطاعنين في القرآن من يرد على نفسه ويناقض كلامه بعضه بعضا، كالفيلسوف جوستاف، أو غستاف لوبون، الذي قال عن القرآن ما نصه: حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التي مرت عليه لم تستطع أن تجفف -ولو بعض الشيء- من أسلوبه .

هوامش البحث

١ لسان العرب: مادة (شرق).

٢ الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية(المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه):١١.

٣ - المستشرقون البريطانيون :٣٥.

٤ معجم متن اللغة ٣/ ٣١٠ .

٥ الاستشراق - إدوارد سعيد: ٦٦.

٦ أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر:١٤١- ١٤٢ .

٧ الموسوعة الميسرة ٣٣/١.

٨ دراسات استشراقية وحضارية : ٢٣

٩ ينظر: رؤية إسلامية للاستشراق : ٧، ودراسات استشراقية وحضارية : ٢٧ .

١٠ الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام (القسم الأول): ٢٧-١٠١.

١١ الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية." في تراث الإسلام (القسم الأول): ١٢٧.

١٢. رؤية إسلامية للاستشراق: ٧.

[١٣] وتعني بلاد الصباح ، ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، وفي مقابل ذلك نستخدم في اللغة كلمة Abendland وتعني بلاد المساء لتدل على الظلام والراحة

[١٤] الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين:١٩١ - ٢١١.

١٥ الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية : ١١ .

١٦) الدراسات العربية في ألمانيا ، تطوّرها التأريخي ووضعها الحالي :٧ .

١٧ -وهو من أصل يهودي، نال تربية تلمودية، ثم درس بالجامعات الألمانية وعرف المنهج التاريخي، عاش في الفترة من (١٨٠٨-١٨٨٩م ، ترجمة د. مصطفى ماهر ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ م

١٧) الدراسات العربية في ألمانيا ، تطوّرها التأريخي:

١٨ جولة مع المستشرقين :٥٩.

١٩ مفتريات على الإسلام:١٢٢

٢٠المستشرقون ومشكلات الحضارة: ٦٣ وما بعدها

٢١ الاستشراق:٨٤.

٢٢ القرآن والمستشرقون، د.التهامي نقرة، بحث منشور في كتاب «مناهج المستشرقين» مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٩٨٥م، ١/٣٠-٣١.

٢٣ المستشرقون ومشكلات الحضارة:٦٩.

٢٤ النساء / ٤٦ .

٢٥ دائرة المعارف الإسلامية الألمانية : ٢ / ٦٠٢ ـ ٦٠٨.

٢٦ تأريخ القرآن : فقرة رقم : ٨.

٢٧ محاضرات في علوم القرآن: ٧٤

٢٨ النبي الخاتم: ٣٠ ـ ٣١.

٢٩ البيان في تفسير القرآن: موضوع التحريف.

٣٠ تأريخ القرآن : ٩٢ ـ ٩٣.

٣١ المستشرقون والدراسات القرآنية:٩٩.

٣٢ المرجع السابق : ٤٩ ـ ٦١.

٣٣ تأريخ القرآن : ١ / ٥٨ الطبعة الثانية.

٣٤ الفهرست : ٢٦.

٣٥ وهو ما قاله المستشرق هـ . ج ويلز في كتابه : معالم تاريخ الإنسانية: ٦٢٦/٣.

٣٦ تاريخ الدولة العربية ليوليوس فلهاوزن:٨، وحضارة العرب:١١١.

٣٧ مناهج المستشرقين: ٢٢.

٣٨ مناهج المستشرقين:٢٢

٣٩ مناهج المستشرقين: ٢٣

٤٠ مناهج المستشرقين: ٢٣

٤١ المستشرقون والإسلام: ١٧.

٤٢ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: ٨٦ ـ ٨٧.

٤٣ م.ن: ٨٦ ـ ٨٨.

٤٤ الإسلام في الفكر الاستشراقي ، المنشور في العدد الثاني من حولية كلية الشريعة بجامعة قطر:١٠٩.

٤٥ القرآن لبلاشير: ٤١.

٤٦ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري:١٠١.

٤٧ آل عمران:١٤٤.

٤٨ الزمر: ٢٠ ـ ٢١.

[٤٩] الإسلام خواطر وسوانح: ٢٦.

[٥٠] م. ن : ٢٤ـ ٢٥.

[٥١] المستشرقون والقرآن والنبي:

[٥٢] جولة مع المستشرقين:٧٠.

[٥٣] م .ن: ٧٠.

[٥٤] م.ن :٧٠.

[٥٥] الأعلى:٦

[٥٦] الإسراء:١٠٦.

[٥٧] النحل:٤٤.

[٥٨] النساء:١٠٥.

[٥٩] الإسلام خواطر وسوانح:٧٠

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر أنور عبد الملك ، ترجمة حسن قبيسي ، في " الفكر العربي المعاصر" عدد ٣٢

ـ الاستشراق(المعرفة ، السلطة الإنشاء)، ادوارد سعيد ، نقله إلى العربية كمال أبو ديب ، دار الكتاب الإسلامي، قم، ط٢، ١٩٨٤م.

الإسلام في الفكر الاستشراقي، العدد الثاني من حولية كلية الشريعة بجامعة قطر

الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري،د. محمود حمدي زقزوق، دار المعارف،القاهرة، ١٩٩٧م.

الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين في الاجتهاد، السيد محمد الشاهد، عدد ٢٢، السنة السادسة ، شتاء عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

ـ الإسلام خواطر وسوانح، المؤلف: هنرى دى كاسترى، المحقق/المترجم: احمد فتحي زغلول، قدّم له وعلّق عليه: د. محمود النجيري، الناشر:مكتبة النافذة، دار طيبة للطباعة،ط١، ٢٠٠٨م.

ـ البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الموسوي الخوئي ،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٧٤ م.

ـ تأريخ القرآن المستشرق الألماني كارل بروكلمان (١٨٦٨ م ـ ١٩٥٦ م) ، ترجمة : عبد الحليم النجار وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ م

ـ تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الي نهايه الدوله الأموية اسم المؤلف: يوليوس فلهوزن، محمد عبد الهادي ابو ريده

ـ جولة مع المستشرقين عبدالخالق أبورابية ،سلسلة دراسات في الإسلام: ١٧٩، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

ـ دائرة المعارف الإسلامية الألمانية، بول. (Fr. Bull) ، تعريب : د. عبد الحميد يونس وجماعته ، القاهرة ، ١٩٣٣ م .

ـ دراسات استشراقية وحضارية، علي بن إبراهيم الحمد النملة.

الدراسات العربية في ألمانيا ، تطوّرها التأريخي ووضعها الحالي ، ظ : البرت ديتريش ، جوتنجن / ١٩٦٢ م.

ـ الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية(المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه). رودي بارت. ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦م.

رؤية إسلامية للاستشراق ، أحمد عبد الحميد غراب ، مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام ، الرياض ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م .

ـ الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام (القسم الأول)، مكسيم رودنسون ، تصنيف شاخت وبوزورث. ترجمة محمد زهير السمهوري ، الكويت: سلسلة عالم المعرفة ، شعبان /رمضان١٣٩٨هـ- أغسطس ١٩٧٨م.

ـ القرآن، نزوله، تدوينه،ترجمته، وتأثيره، ريجيس بلاشير، ترجمة رضا سعادة؛ تعليق محمَّد علي الزعبي. -بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤م.

القرآن والمستشرقون، د.التهامي نقرة، بحث منشور في كتاب «مناهج المستشرقين» مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٩٨٥م.

ـ لسان العرب، لأبي الفضل بن محمد بن مكرم بن منظور (٧١١ه) ، دار الحديث للطّباعة ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .

ـ محاضرات في علوم القرآن ،د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥ م

ـ المستشرقون البريطانيون ، ا. ج. آربري، تعريب محمد الدسوقي النويهي. لندن: وليم كولينز ، ١٩٤٦ .

ـ المستشرقون والإسلام، د. عرفان عبد الحميد، مطبعة الرشاد، بغداد، ١٩٧٩م.

ـ المستشرقون والدراسات القرآنية ، تأليف: محمد حسين علي الصغير، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

ـ المستشرقون ومشكلات الحضارة، د.عفاف صبرة، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥م.

ـ معالم تاريخ الإنسانية ، هـ. ج ولز-عبد العزيز توفيق جاويد

ـ معجم متن اللغة، موسوعة لغوية حديثة، أحمد رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت، سنة النشر: ١٣٧٨ – ١٩٥٩م.

ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.

مفتريات على الإسلام، أحمد محمد جمال، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢م.

مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب التربية العربي، دولة الخليج،١٩٨٥م.

ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المؤلف: مانع بن حماد الجهني، دار الندوة للنشر.

ـ النبي الخاتم علي الحسيني الندوي ، القاهرة ، ١٩٧٥ م.